[1]

صلاة الجماعة

قصة: أسامه محسن العيد

* *

لعبد العزيز مشري، مبدعاً وآدمياً - الإمام.

* *

كعادتي كل يوم، في صباح مطير على غير عادة، جاثلاً على العتاب. حين ألفيت رئيسة الممرضات في باطنية النساء تعتمد، نصف جالسة، على حافة مكتب الاستقبال - الكاونتر بلغة المتعارف -. في حالة تأهب مشوبة بحيرة تتوزع على وجهها. قلقة. كالذي أفلت من يده، وانسربت الرمال، غفلة، من بين أصابعه. تتكئ بمرفقها على الجزء العلوي من المكتب بينما ذقنها قيلت في راحة يدها اليمنى. رأتني. فنهضت متهللة تطلب مني مرافقتها، لأمر هام، إلى الغرفة الانفرادية رقم "٦". تنبهت لحظتها إلى رجع النحيب الذي يأتينا ويشغل الفضاء كله.

تقدمتني الممرضة، تتنقل رشاقة الانكسار، إلى الغرفة الواقعة أقصى الممر شمالاً بمحاذاة باب الطوارئ. دفعت الباب الموارب مفسحة لي المجال. فدلفت إلى المكان الصغير الذي يتسع لسرير واحد، على طرفيه ممرضتان تجهدان لإرقاد جسد ناحل يعلوه وجه أسمر ممتقع بغلالة تشي بجينات الصحراوي. هيكل لثلاثينية تتمنع ولا تكف عن النحيب وإطلاق الآهات بلهجة بدوية معتقة. كمن لسعته حشرة من ذوات الإبر. عيناه محزونتان. رأس صغير يفرشه شعر منتشر.. منكوش. تتراءى بين أطرافها آثار موشاة بحزن غجري مقيم. يسترها فستان بالٍ انحسر دون عناية فكشف عن جيد جاف مثل غصن شجرة ساكن الخريف. وأبان جزء من صدر فتي ضامر.

أطل في ذهني، الخفقة الأولى، مشهد عائشة ابنة جارنا عبد الجبار بشعرها. وغزر رائحتها. الثوب العتيق. عودها الممصوص. وإلى حد مرقة أنينها يلتقي هذيان عائشة ويدغم في نوبات هستيريا ليلية. تراجمها بين الجن والجنون، فتغزونا في الحي الغربي. توقظ ناساً مذعورين. تهري النفوس وتلذع لزوجة

قلوبنا ، نحن الصغار ، فيما تتخلى عنا أحلام بنفسجية كنا ابتدأناها. نهرع الى امهاتنا المنشغلات عنا بالهرولة الى بيت عبد الجبار. نتعلق بأذيالهن بحماس على صدورهن آهاتهن أو يتجاهلن. لنظل في الزقاق ، تعيقنا جلبة السواد من اللحاق بهن. حتى نلتمس ، في مهديهن دربا نأوي فيه لمضاجعنا. نغفو مع جفاف نبع الدمع ، ولا نصحو على أنفسنا الا صباح اليوم التالي والشمس تتسلل الى الحوش ليكون نهار. تغدو فيه عائشة الخبيلة. طيبة. تحنو علينا. وتترفق بنا ، فما أن ندرج الى اللعب حتى تستدرجنا لدكان أبيها. تداعبنا. وتطعمنا قطع الجبن الأصفر اللذيذ المميز عن جبن مطعم وكالة الأغاثة. وفي جيوبنا تخفي حبات الكعك الحلبي قبل حضور العم عبد الجبار. أو تفجؤنا ، غفالة ، لولو.. زوجته الثانية. القصيرة. المحدوبة من لسانها. تغزو علينا وعلى من ربونا متفوهة ببعض أسماء الامهات من صويحباتها. ناشرة مناقبهن على حبل الغسيل.
فتجري ونحن ننعتها بألفاظ بذيئة تجري على لسان الحي زمنا.
وحين تغيب ، خلا نزاها ، نتسامر. مستعجلين ظهورها. يرهبنا يقين بأن لولو. جامحة القلب. وذات الصدر اللوزي. ملح مائدتنا نستكثر أن تختفي ولو للحظة ، في ثرية سماء.

وعندما يغشى الليل ، كل ليل طفولة ، تخوفنا الامهات بعائشة وبأبي رجل مسلوفة لننام مبكرا. فتزورنا في رؤيا العتمة كوابيسا ، تمتطي أبا رجل مسلوفة ، تصحبها ، لا بد ، شمس النهار وقلبها الطيب مثل الجبن.

انتبهت الى الخبيلة ، بوجه عائشة الذابل وعينيها الكليلتين ، وبحركة عفوية أسدلت بقايا نقاب على الجزء الأعظم من وجهها. وقبل أن توضح الممرضة أمرا اتجهت بآهاتها الي :

- ودي .. أروح .. لهند العرب.

دنوت منها ، في صمت ، محاولا اشاعة جو من الألفة. فاستدركت :

- هو أنت من ربعنا... والا من ربعهم.

- محسوبي ، يا أخت العرب.

- "التسترز" الفلبينيه .. هذه "التستر" يا أخي.

التفت الى الممرضة خلفي. كانت ترتكز على طاولة صغيرة تمضغ نفاذ صبرها.

فأوضحت بأنه تم نقل "مطيرته" الى غرفة بمفردها تمهيدا لاجراء جراحة لها.

ومنذ نقلها لم يهدأ لها بال ولم تريح نفسها من البكاء والنواح :

- لن أبقى في الغرفة بروحي...

- العر..ب... الآن أخرج من هنا.

استمرت "مطرة" بصراخ مجنون تتمرغ كالوطئة، ألوان البياض.
بينما الممرضتان تجتهدان نسبيًا في تثبيت حركتها على السرير. وأنا أجتهد
في طمأنتها :

- صاحباتك يقدرن يخشن عليك في الغرفة حقك.

و...

- عندك تلفزيون تشاهدينه وقت ما تحبي. تلفظ المناورة.

لكنها، ترى بشقاء مخلوق صحراوي تلف بالخشونة.
تستطيع. نابذة سماع شيئًا غير نقلها من الغرفة اللعينة. فأستزيد
موضحًا دون جدوى.
شق الباب، ليطل وجهان استنزفهما السواد وهزال النحولة. سألت
واحدة، تستكنه رغائبها:

- معليش.. يا أختي "تبغي شيء".. والإجابة

تزداد إنكسارًا. تخرف ملامة تصوبها سهامًا في وكيد لوعتنا:

- إطلبي... أجيب "شطاني" أو "فيرندا" "تويكس" "كت كات".. أي
حاجة.

لم تجب. تماهى لسانها يدمدم غضبًا:

- خذوني من هنا... خرجت روحي.

حضر الطبيب وزفر صدره. ونحيبها لا يتوقف. فنقلناها تجريبيًا. حتى خلت
أنها موقنة بلقاء حتفها، بعد لحظات، فتبكي نفسها، لسعًا، حتى الموت.
بعد أن وقفت الكثبان الرملية سدًّا منيعًا أمامها. وأنا مستمر في
المحاولة ببرودة أعصاب فرضتها أعصابها. وحين أعلنت فشلي وخرجت
بعد أن شغلتني "مطرة".. عن عملي الذي نسيته تمامًا. كنت قادرًا
على سماع نعيقها من الرواق الخارجي:

- حرام عليكم... الآن أرجع مطرحي الأول...!!

ο ο ο

ج-

في سويعات الليل الأولى أتيتها ببسكويت وعصيرات ومياه معدنية. أدخلتها من الممر الأرضي تجنبًا لتحرشات أمن المستشفى. أدرت النظر في جنبات الغرفة. أبصرتها مكومة في زاوية بلا حراك كجثة مهملة مجهولة الهوية. هالني منظرها. تنداح الآهات. تعلو وتهبط. تتدحرج. تتواتر. تدنو من نهاية الدنيا. تحسبها شاطرة غروب أو تهجد صلاة. اقتربت منها واضعًا ما جلبته في يديها المتشنجتين، فباغتتني بقوة قذفت بها تلك الأشياء لتتناثر على أرض الغرفة. خشيت من ثورتها ثانية. فعدت أدراجي ناسيًا أن أمي المريضة.

د-

في اليوم الثاني زرتها وهي تحت تأثير مخدر العملية. ممددة على السرير. لا تأتي حراكًا، فطرفت بعينيها خابيتين وزوت وجهها عني بحركة اشمئزازية.

هـ-

أما في اليوم الثالث، فحين كنت أمر بدورتي المعتادة، رأيتها في إحدى الغرف الكبيرة وسط وصيفاتها. تقدمت إليها. التقت عيناي بعينيها. فأحسست بالحياة تدب في أوصالها مثل شهرزاد، عائشة ابنة جارنا عبد الجبار. أسرجت ابتسامة عريضة. نضرة. توهجت خلف البرقع، فهي عادت من جديد لهند العرب.

***